

القرآن يهدي للتي هي أقوم

لمعالي الدكتور / محمد بن سعد الشويعر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فقد ختم ابن كثير رحمه الله [٧٠٠ - ٧٧٤هـ] تفسيره بفضائل القرآن، وهو ذيل التفسير، متمماً له، في طبعة البابي الحلبي بمصر، التي قوبلت على عدة نسخ خطية، بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء.

حيث قال: وجدنا هذا الذيل، في آخر النسخة المكيّة الوحيدة، والمقابلة على نسخة المؤلف، ولكنه غير موجود في النسخة المطبوعة، بمطبعة بولاق، وتقع هذه الفضائل في ٥٨ صفحة، ولكنها غير متوفرة في جميع الطبعات .

وإن كان كثير من المفسرين، يذكرون فضائل القرآن باختصار، عند مرورهم ببعض الآيات الكريمات، مثل هذه الآية في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١﴾.

فقد قال ابن الجوزي [٥٠٨ - ٥٩٧هـ] في تفسيره: قال ابن الأنباري: ﴿لِلَّتِي﴾ وصف للجمع، والمعنى: يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال. قال المفسرون: وهي توحيد الله والإيمان به، وبرسله والعمل بطاعته، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿أَجْرًا﴾ وهو الجنة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشرهم بالعذاب لأعدائهم، وذلك أن المؤمنين كانوا في أذى من المشركين، فعجل الله لهم البشري في الدنيا بعقاب الكافرين^(٢).

ويقول الشيخ: محمد المكي الناصري، في إملائه: وانتقل كتاب الله، إلى الحديث عن الميزة الخاصة التي امتاز بها القرآن الكريم: وأنه اشتمل على لب الدين الصحيح، وجوهره الكامل، وعلى شريعة الله الفاضلة، في أسمى أطوارها، وأنه بعد نزوله لم تبق هناك طريقة أقوم، من طريقته، ولا شريعة أفضل من شريعته، فهو الحري والأحق بالاتباع، من جميع الشيع والأتباع وذلك ما يشير إليه قوله تعالى، وفي

(١) الإسراء، الآيتان ٩، ١٠.

(٢) تفسير ابن الجوزي زاد المسير ١٢/٥ - ١٣، منشورات المكتب الإسلامي في بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

إيجاز وإعجاز: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي يهدي للعقيدة التي هي أقوم، والشرعة التي هي أقوم، والحياة التي هي أقوم^(١).

ويقول أبو السعود [٩٠٠ - ٩٨٢هـ] في تفسيره: بعد أن جعل لتفسير هذه الآية الكريمة عنواناً بارزاً هو: (القرآن هدى العالم) ثم قال: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الذي آتيناكه ﴿ يَهْدِي ﴾ أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم، كدأب الكتاب الذي آتياه موسى ﴿ لِلَّتِي ﴾ الطريقة التي ﴿ هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أي أقوم الطرائق وأسدها، أعني ملة الإسلام والتوحيد، وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها، وللحالة والخصلة ونحوها، مما يعبر به عن المقصد المذكور، بل للإيدان بالغنى عن التصريح بها، لغاية ظهورها، لاسيما بعد ذكر الهداية التي هي من روادفها، والمراد بهدايته لها، كونه بحيث يهتدي إليها من يتمسك به، لا تحصيل الاهتداء بالفعل، فإنه مخصوص بالمؤمنين حينئذٍ ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام، والشرائع. وقرئ بالتخفيف ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ التي شرعت فيه ﴿ أَنْ هُمْ ﴾ أي: بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ بحسب الذات، وبحسب التضعيف

(١) التيسير في أحاديث التفسير من إملاء محمد المكي الناصري ٣/ ٣٧٩ نشر

دار الغربي الإسلامي بيروت عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

عشر مرات فصاعداً^(١).

أما في السنة النبوية، فقد وردت أحاديث عديدة، في فضل القرآن بصفة عامة، وفي فضل سور منه أو أحاديث خاصة، ففي موطن الهداية، والمخرج من الفتن، أورد ابن الأثير^(٢)، في كتابه: (جامع الأصول في أحاديث الرسول) عن الحارث بن عبدالله الهمداني - الأعور - قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي رضي الله عنه، فأخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم قال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا

(١) تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم، إلى مزايا الكتاب الكريم ٤٢٧/٣.

(٢) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري [٥٤٤ - ٦٠٦هـ] رحمه الله، وحقق كتابه هذا عبدالقادر الأرناؤوط. الطبعة الأولى عام ١٣٩٢هـ -

١٩٧٢م.

للعالي الدكتور / محمد بن سعد الشويعر

سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ ﴿١﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور»^(٢).

كما جاءت أحاديث كثيرة في فضل سور من القرآن العظيم، نأخذ من ذلك حديثاً واحداً، في فضل سورة الفاتحة، فقد حدث أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خرج على أبي بن كعب، وهو يصلي. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبي»، فالتفت أبي ولم يجبه، وصلى وخفّف، ثم انصرف فقال: السلام عليك يا رسول الله، قال: وعليك السلام، ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟ قال: كنت في صلاة، قال: أفلم تجد فيما أوحى إليّ، أن ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٣). قال أبي^(٤): لا أعود إن شاء الله، قال: «تحبّ أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة،

(١) سورة الجن، الآيتان ١، ٢.

(٢) جامع الأصول ٨/ ٤٦١ - ٤٦٢ رواه الترمذي برقم ٢٩٠٨ في ثواب القرآن: باب في فضل القرآن، ورواه أيضاً الدارمي برقم ٤٣٥/٢، ورواه أحمد في المسند برقم ٧٠٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

(٤) أنصاري خزرجي قال عنه صلى الله عليه وسلم إنه «أقرأ أمي»، وسماه الله ليقرأ القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٦١ - ٦٣، ومصادر أخرى ذكره الزركلي في الأعلام ١/ ٧٨.

ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها؟ قال: نعم. قال: كيف تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، وإنها سبع من المثاني، والقرآن العظيم، الذي أعطيته»^(١).

كما ذكر ابن الأثير [٥٤٤ - ٦٠٦هـ] أحاديث كثيرة، في فضل سور عديدة من كتاب الله، ووقعها في قلوب من يقرأ بتمعن، وتدبر^(٢).

وعن الآيات، فقد جاءت أحاديث في فضل ومكانة آية الكرسي، فقد حدث أبو هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام فأخذه، وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج وعليّ عيال، وبي حاجة شديدة، قال: فخلّيت عنه، فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت يا رسول الله شكّا حاجة وعيلاً فرحمته، فخلّيت سبيله، قال: أما إنه قد كذبتك وسيعود، فعرفت أنه سيعود.

(١) أخرجه البخاري في ثواب القرآن برقم ٢٨٧٨، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب .

(٢) ينظر جامع الأصول الجزء ٨ ص ٤٦٥ - ٤٩٥ .

لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فرصدته، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: دعني فإنني محتاج وعليّ عيال لا أعود. فرحمته فخلّيت سبيله، فأصبحت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخلّيت سبيله قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا آخر ثلاث مرّات إنك تزعم لا تعود، ثم تعود، فقال: دعني فأني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت ما هنّ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى ختم الآية^(١) فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلّيت سبيله. فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلّيت سبيله، قال: ما هي؟ قلت قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تخطم الآية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولن يقربك شيطان حتى تصبح - وكان

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥ .

الصحابة أحرص شيء على الخير - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟ قال: قلت: لا. قال: ذاك شيطان»^(١).

فالقرآن الكريم، قد فتح الله به عند سماعه، قلوباً من الجن والإنس، واستجابوا لنور الحق، وهداهم الله بالتمعن في دلالته وبلاغته، إلى طريق الخير والرشاد .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والهداية إلى طريق الحق، نعمة كبيرة من الله، على عباده يهبها لمن يشاء: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢). وسوف نمرّ إن شاء الله بنماذج مما دلّ عليه القرآن الكريم فمن ذلك...

اليهود وهم أهل الكتاب، نذكر مثلاً لذلك بثلاثة من علمائهم وكبرائهم فتح الله قلوبهم للتمعن في الحق، وآذانهم لسماع آيات من كتاب الله، بصرتهم بما في كتبهم من دعوتهم إلى الخير، وحثّ على حسن اتباع، وفق ما جاءهم من بشارة برسول يأتي من بعد عيسى

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ٣٩٦/٤، ٣٩٨، والحديث عند الحافظ في الفتح ٣٩٨/٤.

(٢) سورة القصص، الآية ٥٦ .

اسمه أحمد، هو خاتم أنبياء الله، وكتابه هو خير كتاب، والدين الذي جاء به، هو دين الله الخالد، إلى يوم القيامة .

ومن أراد الله له الخير، هياً له سماع آيات من القرآن، فوجد فيها فتحاً مبيناً، ونوراً أحيا الله به قلبه، فاستجاب لدعوة الرشاد، وطبق ما عرف من الوصف، على ما سمع من الحق، وهم كثير على كرّ الأيام، ومرّ العصور .

لعل الله جلت قدرته أراد من هؤلاء الذين أوردناهم نموذجاً - حتى لا يتشعب بنا الحديث - لأهل الكتاب، الذين عاندوا، وهم يعرفون الحق، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، كما يعرفون أبناءهم، لتقوم عليهم الحجة، يوم يحصل ما في الصدور .

مع عظم أجر من استجاب من أهل الكتاب، كما قال سبحانه
عَمَّنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ مِنْهُمْ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا
مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
وَيَذَرُوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾^(١).

وقد بين الدلالة بمكانة من دخل الإسلام من أهل الكتاب
المفسرون، ومنهم ابن الجوزي، الذي شارك في تفسيره، على قول الله

(١) سورة القصص، الآيات ٥٢ - ٥٤ .

تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قائلاً: في المشار إليه قولان: أحدهما أنهم مؤمنو أهل الكتاب، وهذا قول الجمهور، وهو الظاهر، واستدلّ على ذلك، بحديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأمن به، واتبعه وصدقته، فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى، وحق سيده، فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها، فأحسن غذاها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران» متفق عليه واللفظ لمسلم . وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٣٣، وزاد نسبه لأحمد والترمذي، والنسائي وابن ماجه، وابن مردويه والبيهقي^(١).

ثم قال ابن الجوزي: وفيما صبروا عليه قولان: أحدهما: أنهم صبروا على الكتاب الأول، وصبروا على اتباعهم محمداً، قاله قتادة، وابن زيد، والثاني: أنهم صبروا على الإيمان بمحمد، قبل أن يبعث، ثم على اتّباعه حين بعث.. قاله الضحاك. والقول الثاني: أنهم قوم من المشركين، أسلموا فكان قومهم يؤذونهم فصبروا على الأذى قاله مجاهد^(٢).

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٦/ ٢٢٩ مع الحاشية .

(٢) المصدر السابق .

١ - وأول هؤلاء الثلاثة الذي دخل الإيمان قلبه، واستجاب للإسلام ديناً خالصاً لله: بصدق وإخلاص، فكان في إسلامه ممن تأثر ببعض المواقف، التي انفتحت لها العقول، قبل الأبصار، ووعاها الفؤاد قبل تلقفها بالآذان، إنه عبدالله بن سلام [...] - ٤٣هـ] الذي كان من أحبار اليهود، فتحول إلى الخيرية في الإسلام، وكان هو وأمثاله ممن برأه الله من صفة الأنعام، من عدم الإدراك والفهم والغفلة، فسعدوا في دنياهم وآخرهم، بحسن النية والاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى، والاستجابة لشرعه جلّ وعلا محبة وعقيدة، ثم عملاً ودفاعاً، ونرجو لأولهم وآخرهم الأجر من الله تعالى، حتى تتحقق العاقبة الحسنة في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم .

وعبدالله بن سلام، في طريقة إسلامه، وثباته على الحق، بعد ما عرفه، نموذج لكثير من الرجال الذين رفعهم الله بهذا الدين، ممن نزلت في قصة إسلامهم آيات كريمات، وهم بحمد الله كثير في تاريخ الإسلام، على مختلف العصور، وما يرصد من تاريخ بعضهم ففيه عبرة وقدوة، بل إن كثيراً من هؤلاء إذا انكشف أمره، خشي على لذة الإيمان أن ينطفئ نورها من قلبه، ولا يجاهر أو يحبّ الظهور، خوفاً من مداخل الرياء، والعجب بالنفس، ولكنه يشكر الله، ويكثر من

الخيرات، عسى أن يبعثه ربّه مع الفائزين، برضا الله يوم البعث والنشور .

ولما كان اليهود في المدينة، قد كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظاهروه العداء، وكنتموا ما عرفوه عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وما عندهم من الحق عنه، وعن رسالته، ممّا علمهم الله به على ألسنة أنبيائهم، وما جاء في كتبهم فقد أراد الله أن تكون فضيحتهم على رجل منهم، له ولوالده مكانة عندهم .

فقد ذكر قصّة إسلامه، كل من كتب عن سيرته وهم لا يقلون عن عشرين مصدراً^(١)، ومنهم الذهبي في موسوعته في التراجم، فقال عنه: عبد الله بن سلام بن الحارث، الإمام الخبر، المشهود له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار، من خواصّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان فيما بلغنا ممّن: شهد فتح بيت المقدس، نقله الواقدي، وله إسلام قديم، بعد أن قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وهو من أحبار اليهود. ثم قال في مبدأ إسلامه:

قال عوف الأعرابي: حدثنا زرارة بن أوفى، عن عبدالله بن

(١) يراجع في هذا سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤١٣ الهامش فقد ذكر المحقّق شعيب الأرناؤوط تلك المصادر بالجزء والصفحة .

سلام، قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس عليه، وكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت، أنّ وجهه ليس كذاباً - وهذا من فراسته رضي الله عنه - فكان أول شيء سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

وحتى يتوثق عبدالله عن صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أول لقاء حتى يُقدِّم على الإسلام، ييقن ثابت، وقلب مطمئن . فقد أورد الذهبي رواية أخرى عن حميد عن أنس: أنّ عبدالله بن سلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه، إلى المدينة فقال: إنني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبيّ: ما أول أشرار الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال: أخبرني بهنّ جبريل آنفاً، قال عبد الله بن سلام: ذلك عدوّ اليهود من الملائكة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا أول أشرار الساعة، فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب، وأمّا ما يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد حوت^(٢) وأمّا الشّبه: فإذا سبق ماء الرجل، نزع إليه

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٤٥١، والترمذي برقم ٢٤٨٧، وابن ماجه برقم ١٣٣٤ وصححه الحاكم ٣/ ١٣.

(٢) جاء في بعض الروايات الحوت - بالتعريف - .

الولد، وإذا سبق ماء المرأة، نزع إليها، عندها قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله... ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يَعْلَمُوا بإسلامي بهتوني، فأَرْسِلْ إليهم، فسلهم عني .

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: أي رجل ابن سلام فيكم؟ قالوا: حَبْرنا وابن حَبْرنا، وعالمنا وابن عالمنا، قال أرأيتم إن أسلم تسلمون؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عليهم عبدالله بن سلام، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا. فقال عبدالله: يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بُهت^(١).

وأما رواية ابن هشام فقد قال: قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام، كما حدثني بعض أهله عنه، وعن إسلامه حين أسلم، وكان حَبْرًا عالماً قال: لما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه، الذي كنا نتوَكَّف^(٢) له، فكنت مُسِرًّا ذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فلما نزل بقاء، في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر قومه بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥ الطبعة الثانية تحقيق شعيب الأرنؤوط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٢) يعني تترقب ونتوقع .

الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرتُ. فقالت لي عمّتي، حين سمعتُ تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدتُ !! .
فقلت لها: أيّ عمّه، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه،
بُعث بما بُعث به .

فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم. فقالت: فذاك إذن .

قال: ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت،
ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا. قال: وكنت كتمت إسلامي
من يهود، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول
الله إن يهود قوم بهت^(١) وإني أحبّ أن تدخلني في بعض بيوتك،
وتغيّيني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن
يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

قال عبدالله: فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض
بيوته، ودخلوا على رسول الله، فكلّموه وساءلوه، ثم قال لهم: أيّ
رجل الحصين^(٢) بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبَرنا

(١) البهت الباطل يعني أنهم يبهتون الإنسان بما ليس فيه .

(٢) الحصين هو اسمه قبل الإسلام وقد غيره رسول الله صلى الله عليه وسلم
ب: عبدالله .

وعالمنا... قال: فلما فرغوا من قولهم، خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتّقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فو الله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأصدّقه وأعرفه .

فقالوا: كذبتَ ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور، قال: فأظهرت إسلامي، وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمّي خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها^(١).

وجاء في أسد الغابة لابن الأثير [٥٥٥ - ٦٣٦هـ]: أن ابن سلام من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وأورد (بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه [٢٠ ق هـ - ١٨هـ] لما حضره الموت، قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، فقال: أجلسوني ثم قال: إن العلم والإيمان بمكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فالتمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبدالله بن مسعود، وعند عبدالله بن سلام، الذي كان يهودياً فأسلم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه عاشر عشرة في

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ١٦٣ - ١٦٤ الطبعة الثالثة تحقيق مصطفى السقا وزميله، عام ١٣٩١هـ - ١٩٧١م نشر دار إحياء التراث بيروت لبنان .

الجنة، وأورد حكايته مع عثمان رضي الله عنه وهو محاصر قبل مقتله، عندما طلب منه أن يطرد الناس عنه، فخرج وتكلم معهم، وكان مما قال: ونزلت في آيات من كتاب الله عز وجل:

- نزل في: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(١).

- ونزل في: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾^(٢) (٣).

وقال ابن إسحاق نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من يهود الذين، أسلموا، في بيان فضلهم ومكانتهم بعدما هداهم الله للإسلام، وثبتوا على ذلك متحملين، حملة اليهود عليهم، وسمى من نزلت فيه، وسمى ثلاثة منهم، قال نزلت في هؤلاء هذه الآية: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(٤) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَدُسِرَ عُورَتِ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٤).

(١) سورة الرعد، الآية ٤٣ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٠ .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦٥، وكتاب الشعب تحقيق محمد أحمد عاشور وزميله في تفسير هذه الآية، تفسير ابن كثير .

(٤) سورة آل عمران، الآيتان ١١٣، ١١٤ .

- فأما الآية الأولى الخاصة بعبدالله بن سلام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فقد قال بعض المفسرين: إن الدلالة فيمن عنده علم الكتاب، بأنه عبدالله بن سلام رضي الله عنه، منهم مجاهد في تفسيره، فقد قال: أنبأنا عبدالرحمن نا إبراهيم نا آدم، نا ورقاء عن ابن أبي نُجَيْح: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: هو عبد الله بن سلام^(١).

وقال السيوطي [٨٤٩ - ٩١١هـ] في تفسيره: أخرج ابن مردويه، من طريق عبدالملك بن عمير، عن جندب رضي الله عنه قال: جاء عبدالله بن سلام رضي الله عنه، حتى أخذ بعصا دتي باب المسجد، ثم قال: أنشدكم بالله، أتعلمون أني أنا الذي أنزلت فيه ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قالوا: اللهم نعم.

وقال أيضاً: أخرج ابن سعد وابن أبي شيبه، وابن جرير وابن المنذر، عن مجاهد أنه كان يقرأ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: هو عبدالله بن سلام^(٢).

(١) تفسير مجاهد ص ٣٣١، قدم له وحققه عبدالرحمن السورتى مجمع البحوث الإسلامية باكستان، طبع على نفقة أمير قطر.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦٦٨/٤ نشر دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- وابن كثير [٧٠٠ - ٧٧٤هـ] جمع بين الرأيين فقال: عبد الله بن سلام، أول من أسلم من علماء وأحبار اليهود، وجاء نقلاً عن الحافظ أبي نعيم الأصبهاني [٣٣٦ - ٤٣٠هـ] في كتاب (دلائل النبوة) وهو كتاب جليل، بالسند عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبدالله بن سلام، عن أبيه عن جدّه: عبدالله بن سلام، أنه قال لأحبار اليهود: إني أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم، وإسماعيل عهداً، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمنى والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنت عبدالله بن سلام، قلت: نعم. قال: ادن. فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبدالله بن سلام أما تجدني في التّوراة: رسول الله؟ فقلت: انعت ربّنا؟ قال فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿١﴾ إلى آخرها، فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله... ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة، فكنتم إسلامه، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأنا فوق نخلة لي أجذها، فألقيت نفسي، فقالت أمي: الله أنت، لو كان موسى بن عمران، ما كان أن تلقي نفسك، من رأس النخلة،

فقلت: والله لأنا أسرّ بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، من موسى بن عمران^(١).

وأما الآية الثانية التي قال رضي الله عنه: إنها نزلت فيه، فهي قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فِقَامٌ وَأَسْتَكْبَرُوا﴾^(٢).

فقد جاء في تفسير العلامة أبي السعود [٩٠٠ - ٩٨٢هـ] قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وما بعده، من الفعلين، فإنّ الكلّ أمور محققة عندهم، وإنّما ترددهم في أنها شهادة وإيمان بما، من عند الله تعالى.. ﴿فِقَامٌ وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن، لما علم أنه من عند الله، من جنس الوحي الناطق بالحق، وهو عبد الله بن سلام، لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونظر في وجهه الكريم، فعلم أنّه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنّه النبيّ المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاث.... ثم ذكر بقية القصّة^(٣).

(١) تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٥٢١ مطبعة البابي الحلبي بمصر .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٠ .

(٣) تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٥ ص ١٢٤ تحقيق عبدالقادر أحمد عطاء الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٠م. الناشر مكتبة الرياض الحديثة .

أما ابن الجوزي [٥٠٨ - ٥٩٧هـ] في تفسيره، فقد قال عندما مرّ بهذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فيه قولان: أحدهما أنه عبدالله بن سلام: رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن ومجاهد، وقتادة وابن زيد والضحاك .

والثاني: أنه موسى عليه السلام قاله الشعبي ومسروق، فعلى القول الأول، يكون المثل صلة، فيكون المعنى، وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه، أي على أنه من عند الله ﴿فَأَمَّنَ﴾ الشاهد، وهو ابن سلام، ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يا معشر اليهود .

وعلى الثاني: يكون المعنى: وشهد شاهد هو موسى على التوراة، التي هي مثل القرآن أنها من عند الله، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله ﴿فَأَمَّنَ﴾ من آمن بموسى والتوراة ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ، أنتم يا معشر العرب، أن تؤمنوا بمحمد والقرآن^(١).

وكتب التفسير كلها لم تخرج عن هذين الرأيين، إلا أن الترجيح، في دلالة الآية الكريمة، على عبد الله بن سلام، الذي زكاه الله سبحانه في القرآن الكريم، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة في موضعين من السنة: ويّين فضله^(٢).

(١) زاد المسير في علم التفسير ج ٧ ص ٣٧٣-٣٧٤ الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م الناشر المكتب الإسلامي بيروت.

(٢) ينظر جامع الأصول لابن الأثير في فضائل عبد الله بن سلام ج ٩ ص ٨١-٨٥ .

وما حدث به معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهو في مرض الموت بما سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأنه يُلمَس العلم عند أربعة منهم: عبدالله بن سلام، الذي كان يهودياً فأسلم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعه يقول: إن عبد الله بن سلام عاشر عشرة في الجنة^(١).

أما الموطن الثالث من كتاب الله الكريم: القرآن العظيم، الذي جاء فيه تفضيل لمجموعة من أهل الكتاب سبقوا إلى الإسلام، وشهدوا شهادة الحق أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه تزكية لهم، فيبرز ذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(٢).

فقد قال محمد بن جرير الطبري [٣٢٤ - ٤١٠هـ] في تفسيره: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب، الذين ذكرهما الله في قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣): أهل الإيمان منهم والكفر: سواء: يعني بذلك أنهم غير متساويين،

(١) أخرجه الترمذي عن يزيد بن عميرة رحمه الله برقم ٣٨٠٦ في باب مناقب عبدالله بن سلام رضي الله عنه وإسناده حسن .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٣ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ١١٠ .

يقول: ليسوا متعادلين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر، ثم أخبر جلّ ثناؤه عن حال الفريقين عنده، فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليس هؤلاء سواء، المؤمنون منهم والكافرون، ثم ابتداءً سبحانه الخبر عن صفة الفرقة المؤمنة من أهل الكتاب، ومدحهم وأثنى عليهم، بعكس ما جاء عن الفرقة الفاسقة منهم، بما وصفهم به من الهلع وتحمل خزي الدنيا، وفضيحة الآخرة... إلى أن قال: وقد نزلت الآيات الثلاث، في جماعة من اليهود أسلموا فحسن إسلامهم، وذكر في الحديث رقم ٧٦٤٤، الذي روي بالسند إلى ابن عباس قال: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سَعِيَّة، وأسيد بن سَعِيَّة، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فأمنوا وصدقوا إلى آخر الحديث.

ثم ذكر في الحديث ٧٦٤٧ بالسند إلى ابن جريج قال: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سلام أخوه، وسَعِيَّة ومبشر، وأسيد وأسد ابنا كعب، ليسوا سواء: أي لا يستوي أهل الكتاب، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم^(١).

٢ - أما الثاني فهو كعب الأخبار [٣٢ - ٠٠٠ هـ]، الذي تحدّث

عنه الزركلي في قاموسه الأعلام، وأخذ ترجمته من عشرة مصادر، قال

(١) يراجع تفسير الطبري: جامع البيان الجزء السابع تحقيق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر ص ١١٨-١٢٣ الناشر دار المعارف بمصر .

عنه، هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها عن مائة وأربع سنين (١٠٤) (١).

وفي قصة إسلامه يروي أبو نعيم أن سبب ذلك سماعه لآية من القرآن، عند ما مرّ برجل يقرأ، فخاف من وعيد الله، فبادر للإسلام، عند ما قال: إن كعباً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - وأسلم في ولايته - وذلك أنه مرّ برجل، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا...﴾ (٢) الآية.

فأسلم كعب ثم قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستأذنه بعد ذلك في الغزو إلى الروم، فأذن له. فانتهى إلى راهب قد حبس نفسه في صومعة أربعين سنة، فناداه كعب فأشرف عليه الراهب فقال: من أنت؟ قال: أنا كعب الحبري، قال: قد سمعت بك، فما

(١) الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٦ ص ٨٥ الطبعة الثانية .

(٢) سورة النساء آية ٤٧ .

حاجتك؟ قال: جئت أسألك عن حالك، نشدتك بالله، هل حبست نفسك في هذه الصومعة، إلا لآية تجدها في التوراة؟ إن أصحاب رؤوس الصوامع البيض، هم خيار عباد الله، عند الله يوم القيامة!.

قال: اللهم نعم، قال: فنشدتك بالله، هل تجد في الآية التي تتلوها، أنهم الشعث الغبر الذين أولادهم يتامى، لغيبة آبائهم، وليسوا يتامى، ونسأؤهم أيامى لغيبة أزواجهم، ولسن بأيامى، أزودتهم على عواتقهم، تحملهم أرض، وتضعهم أخرى، يجاهدون في سبيل الله، هم خيار عباد الله؟

قال: اللهم نعم، قال كعب: فإن هذه ليست تلك الصوامع، إنما هي فساطيط أمة محمد عليه الصلاة والسلام، يغزون في سبيل الله، وليس هذه الصومعة التي حبست نفسك فيها، فنزل إليه الراهب، فأسلم وشهد معه شهادة الحق، وغزا معه الروم، وانصرف إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فأعجب عمر بإسلامهما... فكانت الرهبانية بدعة منهم، كما أخبر الله سبحانه عن قوم عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ... ﴾ ^(١) الآية .

(١) سورة الحديد الآية ٢٧ .

وجاء عند أبي نعيم تكملة في سبب إسلامه، بسياق آخر، من طريق أبي محمد بن حبان يتصل إلى يزيد بن شريح، قال: قال كعب: لما قرأت: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾^(١) أسلمت حينئذٍ، شفقة أن يحول وجهي نحو قفائي^(٢).

أما الذهبي [٦٧٣ - ٧٤٨هـ]: فقد روى بعض أخباره، التي استقاها من عشرين مصدراً، كما وضّح ذلك المحققان: محمد نعيم العرقسوسي، ومأمون صاغرجي في الهامش، أو لعله من عمل شعيب الأرنؤوط، الذي أشرف على تحقيق الكتاب، وخرّج أحاديثه^(٣).

وقد قال عنه الذهبي: قدم المدينة من اليمن، فجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويحفظ عجائب، ويأخذ السنن عن الصحابة، وكان حسن الإسلام، متين الديانة من نبلاء العلماء، حدّث عن عمر وصهيب وغيرهما، وحدّث عنه من الصحابة: أبو هريرة ومعاوية وابن عباس، وهو نادر عزيز، كما حدّث عنه مجموعة عدة من التابعين .

(١) سورة النساء آية ٤٧ .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد الأصبهاني ج ٦ ص ٧٠٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٨٩ الهامش الطبعة الثانية .

وكان خبيراً بكتب اليهود، له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة^(١).

وجاء من التحقيق، تعليق على كلمة ويحفظ عجائب: هذا نصه، قال الحافظ ابن كثير [٧٠٠ - ٧٧٤هـ] في تفسير سورة النمل، بعدما أورد طائفة من الأخبار، في قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام: والأقرب في مثل هذه السيقات، أنها مستقاة من أهل الكتاب، مما وُجد في صحفهم، كروايات كعب الأحبار، ووهب بن منبه، ساجهما الله تعالى، فيما نقلنا إلى هذه الأمة، من أخبار بني إسرائيل، ومن الأوابد والغرائب، والعجائب، مما كان، ومما لم يكن، ومما حُرّف وبُدِّل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه، بما هو أصح منه، وأنفع وأوضح، وأبلغ والله الحمد والمِنَّة^(٢).

وقد جاء عند البخاري [١٩٤ - ٢٥٦هـ]، فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني [٧٧٣ - ٨٥٢هـ] تصحيح وتحقيق بإشراف الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، في باب لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء: أن حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية، يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق

(١) المصدر السابق ص ٤٩٠ .

(٢) نهاية كلام ابن كثير في تفسيره ج ٣ ص ٣٦٦ مطبعة البابي الحلبي بمصر .

هؤلاء المحدثين، الذي يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب، وقد أورد الشيخ عبدالعزيز بن باز، في شرحه المطول لهذا الحديث، ما يزكي فيه كعب الأخبار ويوثقه .

وفي قول معاوية: (لنبلو عليه الكذب) والمراد بالمحدثين: أنداد كعب، ممن كان من أهل الكتاب وأسلم، فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر في كتبهم، فحدث عما فيها. قال: ولعلمهم كانوا مثل كعب، إلا أن كعباً أشد منهم بصيرة، وأعرف بما يتوقاه، وقال ابن حبان في كتاب الثقات: أراد معاوية أنه يخطئ أحياناً فيما يخبر به، ولم يرد أنه كان كذاباً، وقال غيره: الضمير في قوله: (لنبلو عليه) للكتاب لا لكعب، وإنما يقع في كتابهم الكذب، لكونهم بدّلوه وحرّفوه .

وقال عياض: يصح عوده على الكتاب، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه، وإن لم يقصد الكذب، ويتعمّده، إذ لا يشترط في مسمى الكذب التعمّد، بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب، وقال ابن الجوزي [٥٠٨ - ٥٩٧هـ]: المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب، عن أهل الكتاب يكون كذباً، لا أنه يتعمّد الكذب، وإلا فقد كان من أخيار الأخبار .

ثم جاء في الختام، ما يدل على أن سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، يميل إلى نفي الكذب، عن كعب وتعمّده، استناداً على أقوال

العلماء فيه، حيث أورد عن ابن سعد عن طريق عبدالرحمن بن جبير، قال: قال معاوية إلا أن كعب الأحبار، أحد العلماء، إن كان عنده لعلم كالبهار، وإن كنا فيه لمفرطين) ثم قال رحمه الله: فالمراد بأهل الكتاب اليهود، لكن الحكم عام، فيتناول النصارى، قوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»^(١) هذا لا يعارض حديث الترجمة، فإنه نهى عن السؤال، وهذا نهى عن التصديق والتكذيب، فيحمل الثاني: على ما إذا بدأهم أهل الكتاب بالخبر^(٢).

وما دام ظهر لنا من توثيق المحدثين لكعب الأحبار، ونفي الكذب عنه، فإننا نأخذ من أخباره، ما لا يتنافى مع نص شرعي وفيه فائدة، ومن ذلك ما جاء عند الذهبي، رواية عن محمد بن سيرين، عن أبي الرباب قال: دخلنا على أبي الدرداء رضي الله عنه نعوذ، وهو يومئذ أمير، وكنت أحد خمسة ولوا قبض السّوس، فأتاني رجل بكتاب، فقال: بيعونه، فإنه كتاب الله، أحسن قراءته ولا تحسنون، فنزعنا دفتيه، فأخذه بدرهمين .

(١) جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ١٣٩/٨ في تفسير الآية من سورة البقرة .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تصحيح وتحقيق الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ج ١٣ ص ٣٣٤ - ٣٣٥. نشر وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء .

فلما كان بعد ذلك خرجنا إلى الشام، وصحبنا شيخ على حمار، بين يديه مصحف يقرؤه، ويبكي، فقلت: ما أشبه هذا المصحف، بمصحف شأنه كذا وكذا^(١). فقال: إنه هو.. قلت: فأين تريد؟ قال: أرسل إليّ كعب الأحبار، عام الأول فأتيته، ثم أرسل إليّ، فهذا وجهي إليه .

قلت فأنا معك، فانطلقنا حتى قدمنا الشام، فقصدنا عند كعب، فجاء عشرون من اليهود، فيهم شيخ كبير، يرفع حاجبيه بحريرة، فقالوا: أوسعوا أوسعوا، فأوسعوا وركبنا أعناقهم، فتكلموا. فقال كعب: يا نعيم أتجيب هؤلاء، أو أجيبهم؟ قال: دعوني حتى أفقه هؤلاء ما قالوا.

إن هؤلاء، أثنوا على أهل ملتنا خيراً، ثم قلبوا ألسنتهم، فزعموا أنّا بعنا الآخرة بالدنيا، هلمّ فلنواثقكم، فإن جئتم بأهدى مما نحن عليه، اتبعناكم، وإلاّ فاتبعونا إن جئنا بأهدى منه. قال: فتواثقوا، فقال كعب: أرسل إليّ ذلك المصحف، فجئ به، فقال: أترضون أن يكون هذا بيننا؟ قالوا: نعم. لا يُحسِنُ أحدٌ أن يكتب مثله اليوم. فدفع إلى

(١) ينظر عن فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ما جاء عند أبي نعيم في الحلية

٦/ ٣٨٤ - ٤٨٧، وهذا المصحف وجد في قبر النبي دانيال بالسوس. ينظر ابن

كثير في سيرة عمر، وفي فتح السوس ٧/ ١٠٨ .

شابّ منهم، فقرأ كأسرع قارئ، فلما بلغ إلى مكان منه، نظر إلى أصحابه، كالرجل يؤذن صاحبه بالشيء، ثم جمع يديه فقال: يه... فنبذه، فقال كعب: آه وأخذه، فوضعه في حجره، فقرأ... فأتى على آية منه، فخرّوا سُجّداً، وبقي الشيخ يبكي.

قيل: ما يبكيك؟ قال: وما لي لا أبكي، رجل عمل في الضلالة كذا وكذا سنة، ولم أعرف الإسلام حتى كان اليوم .

قال مطّرف بن مالك وكان معهم في السّوس: فبدا لي أن آتي بيت المقدس، فبينما أنا في الطريق، إذا أنا براكب، شبّهته بذلك الأجير النّصرانيّ، فقلت: نُعِيم؟ قال: نعم. قلت: ما فعلت بنصرانيّتك؟ قال: تحنّفت بعدك - أي دخلت الحنيفيّة وهي الإسلام .

ثم أتينا الشام (دمشق) فلقيت كعباً الحبر، ثم انطلقنا ثلاثنا حتى أتينا أبا الدرداء، فقالت أم الدرداء لكعب: ألا تعينني على أخيك؟ يقوم الليل، ويصوم النهار، قال: فجعل لها من كل ثلاث ليال ليلة .

ثم أتينا بيت المقدس، فسمعت يهود بنعيم وكعب، فاجتمعوا فقال: كعب: هذا كتاب قديم وإنه بلغتكم، فاقرؤوه .

فقرأه قارئهم، حتى أتى على ذلك المكان ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (١)،

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

فأسلم منهم اثنان وأربعون خَبْرًا، ففرض لهم معاوية، وأعطاهم^(١).
والخبر هو العالم الكبير في علمه، ومكاته عند اليهود، وهذا من
معاوية رضي الله عنه تثبيتاً لإيمانهم، وترغيباً في الإسلام .
وروى أبو نعيم الأصبهاني، بسنده إلى عكرمة، عن كعب الأحبار
قال: أول ما أنزل من التوراة، عشر آيات، وهي العشر التي نزلت في
آخر سورة الأنعام^(٢).

وحدّث أبو نعيم بالسند، من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه
عن السّلوّيّ، عن كعب الأحبار قال: اختار الله البلاد: فأحبّ البلاد
إلى الله البلد الحرام، واختار الله الزّمان، فأحبّ الزمان إلى الله الأشهر
الأوائل الحرم، وأحبّ الشهور إلى الله، ذو الحجة وأحبّ ذي الحجة
إلى الله العشر الأول، واختار الله الأيام فأحبّ الأيام إلى الله يوم
الجمعة، واختار الله الليالي، فأحبّ الليالي إلى الله ليلة القدر، واختار
الله ساعات الليل والنهار، فأحبّ ساعات الليل والنهار إلى الله،
ساعات المكتوبات، واختار الله الكلام، فأحبّ الكلام إلى الله: لا إله
إلا الله، والله أكبر وسبحان الله، والحمد لله^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٣ ص ٤٩١ - ٤٩٣ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ -
١٩٨٢م مؤسسة الرسالة بيروت .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ٦ ص ١٣ الناشر دار أم القرى بمصر .

(٣) المصدر السابق ص ١١٣ .

إنَّ نور الله إذا أراد سبحانه بالعبد خيراً، يقذفه الله بحاسّة القلب، فيفتح لهذا النور الذي هو هبة من الله جلّ وعلا، ويتغيّر إحساس صاحبه من الانغلاق إلى التبصّر، ومن الظلمة إلى النور، ليتأصل هذا الإحساس، في أعماق القلب، ومن ثمّ يدفع صاحبه إلى البحث عن الحقيقة، التي يجدها في عمق ما يقرأ، أو يسمع من آية في كتاب الله، تربطه بمفهوم دقيق في نفسه، أو فيما حوله، أو بموازنة بما لديه من معتقد، ليقارب ويتبسّر، ومن ثم يبرز عنده الحقّ، ويتضاءل الباطل بعلامات كلّ منهما... وهذا من فضل الله على ذلك الإنسان، أن يسرّ الله طريق الهداية، كما قال سبحانه لنبيّه الكريم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١) ويقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً يُهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٢).

ويظهر هذا جلياً، في حالات من أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، ليسترشد من أراد الله له الهداية، والخير، ويعاند من تقوم عليه الحجّة، لأنّهم يعرفون الله في الكتب المنزلة على أنبيائهم، وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حقّ وأن القرآن المنزل عليه حقّ من عند الله، مثبت لما عندهم. وناسخ

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥٢ .

لما في أيديهم من أحكام، خفف الله بها عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، رحمة ورأفة، من الله سبحانه بهذه الأمة، كما جاء في حديث الإسراء والمعراج، في موضوع فرض الصلاة، التي بدأت بخمسين، وموسى عليه السلام، يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارجع إلى ربك واسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق، فقد جرّبت قبلك بني إسرائيل، واسأل ربك التخفيف، وما زالت المراجعة حتى صارت خمس صلوات في اليوم والليلة، وجعلها الله سبحانه، خمساً في الأداء، خمسين في الأجر^(١).

ونختم الحديث عن كعب الأحبار، وسيرته التي اعتنى بها علماء الإسلام، لأنه من كبار أحبار اليهود، والمرجع لهم في كل ما نزل، من تشريعات في التوراة، علاوة على اطلاعه على أخبار الأمم السابقة، وما فيها من معلومات عن تلك الأمم، إذ كان خبيراً، بكثير من الكتب القديمة، ومنها التوراة، ومدركاً لما فيها بالذات مما يبشر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وصفاته، ممّا دفعه إلى المبادرة بالإسلام، خوفاً من عقاب الله، كما مرّ بنا آنفاً .

وعن وفاته التي ارتبطت بذلك المصحف - الكتاب - الذي وجد

(١) يراجع في هذا الحديث حديث الإسراء والمعراج المطول، عند ابن كثير في تفسيره لسورة الإسراء .

في «السّوس» والتي وجدوا فيها النبي دانيال في لحد من صُفْر، وكان أهل «السّوس» إذا أجدبوا استخرجوه، فاستسقوا به، فلما كتب أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إليه: إن نبيّ الله دعا أن لا يرثه إلاّ المسلمون، فصلّ عليه وادفنه، قال همام بن يحيى، وحدثنا فرقد، حدثنا أبو تيممة: أن كتاب عمر جاء: أن اغسله بالسّدر وماء الرّيحان^(١).

ثم قال الذهبي لتلك الرواية ما يوضح إسلام كبار علماء من اليهود معقباً بقوله: ثم رَجَعُ إلى حديث مطرّف بن مالك قال: فبدا لي أن آتي بيت المقدس، فبينما أنا في الطريق، إذا أنا براكب، شبّهته بذلك الأجير التّصرانيّ، فقلت: تُعِيم؟ قال: نعم. قلت: ما فعلت بنصرانيّتك؟ قال: تحنّفت بعدك - أي دخلت في الإسلام - بعدك، ثم أتينا الشام (دمشق) فلقيت كعباً الخبر.

ثم انطلقنا ثلاثتنا حتى أتينا أبا الدرداء، فقالت أم الدرداء لكعب: ألا تعني على أخيك؟ يقوم الليل، ويصوم النهار، قال: فجعل لها من كل ثلاث ليالٍ ليلة.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط ج ٣ ص ٤٩٢ وينظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ١٠٨ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ على نفقة محمد بن راشد آل مكتوم، وقال ابن كثير وقد بسطنا ذلك في سيرة عمر والله الحمد.

ثم أتينا بيت المقدس، فسمعت يهود بنعيم وكعب، فاجتمعوا فقال: كعب: هذا كتاب قديم وإنه بلغتكم، فاقرؤوه .

فقرأه قارئهم، حتى أتى على ذلك المكان: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (١)، فأسلم منهم اثنان وأربعون حبراً، ففرض لهم معاوية، وأعطاهم .

ثم قال همام: وحدثني بسطام بن مسلم، حدثنا معاوية بن قرة، أنهم تذاكروا ذلك الكتاب، فمرّ بهم شهر بن حوشب، فقال: على الخير سقطتم ثم ذكر حكاية إخفاء كعب لمعالم ذلك الكتاب، قال: إنها التوراة، ولكن خشيت أن يُثكل على ما فيها، ولكن قولوا: لا إله إلا الله، ولقنوها موتاكم .

ثم قال الذهبي رحمه الله: هكذا رواه ابن أبي خيثمة في تاريخه عن هذبة عن همام .

وهذا القول من كعب، دالّ على أن تيك النسخة، من التوراة، وأن ما عداها بخلاف ذلك، فمن الذي يستحلّ أن يورد اليوم، من التوراة شيئاً، على وجه الاحتجاج، مُعتقداً أنها التوراة المنزلّة؟ كلاً والله (٢).

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء الطبعة الثانية عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط ج ٣ ص ٤٩٢ - ٤٩٤ .

ومتأسياً في إخفاء معالمها، بما حصل لعمر بن الخطاب، عندما جاء إلى رسول الله، ومعه ورقة من التوراة، فتأثر وقال لعمر: «أفي شك مما جئت به يا ابن الخطاب، والله لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي» فرماها عمر وتاب من عمله^(١).

٣ - والثالث: هو وهب بن منبه [٣٤ - ١١٤هـ]، الأبنائي - يعني أنه من أبناء الفرس، الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن، يقول الزركلي: كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين، ولاسيما الإسرائيليات، يُعدّ من التابعين، ولأه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء، وقال: وفي وفاته خلاف، وأنه من أصل يهودي، ويتقن اليونانية والسريانية والجميرية^(٢).

ذكر ابن عساكر [٦٣٠هـ - ٧١١هـ]، في مختصر تاريخه (تاريخ دمشق): أن سماك بن الفضل قال: كنا عند عروة بن الزبير [٢٢ - ٩٢هـ]، وإلى جنبه وهب بن منبه، فجاء قوم، فشكوا من عاملهم شيئاً، فتناول وهب عصاً، كانت في يد عروة، فضرب بها رأس العامل، حتى سال دمه، فضحك عروة، واستلقى على قفاه، وقال: يعيب علينا أبو عبد الله الغضب، وهو يغضب .

(١) توجد أخبار وسيرة كعب عند أبي نعيم في الحلية ٣٦٤/٥، إلى آخر الجزء، ٣/٦٠.

(٢) الأعلام للزركلي الطبعة الثانية ج ٩ ص ١٥٠ .

فقال وهب: وما لي لا أغضب، وقد غضب الذي خلق الأحلام،
إن الله تبارك وتقدس يقول: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾^(١)
يقول: أغضبونا .

وقيل له: كيف ترى الرؤيا تحدثنا بها، فلا تلبث أن نراها، كما
رأيت. قال: هيهات، ذهب ذلك عني منذ وليت القضاء^(٢).

وأورد الذهبي [٦٧٣ - ٧٤٨هـ]، نبذة عن سيرته، استقاها من
(٢٥) مصدراً، ومن ذلك قوله: عن عبدالرزاق عن أبيه عن وهب،
قال: يقولون: عبدالله بن سلام، كان أعلم أهل زمانه، وإن كعباً أعلم
أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما، أهو أعلم أم هما؟

وعن كثير أنه سار مع وهب، فباتوا بصعدة عند رجل، فخرجت
بنت الرجل، فرأت مصباحاً، فاطّلع صاحب المنزل، فنظر إليه صافاً
قدميه في ضياء، كأنه بياض الشمس، فقال الرجل: رأيتك البارحة، في
هيئة وأخبره، فقال: اكتم ما رأيت.

وعن عباد بن كعب قال: حدّث المشني بن الصباح قال: لبث
وهب بن منبه، أربعين سنة، لم يسبّ شيئاً فيه الروح، ولبث عشرين
سنة، لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً، وقال: قال وهب: لقد
قرأت ثلاثين كتاباً نزلت على ثلاثين نبياً .

(١) سورة الزخرف آية ٥٥ .

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر لابن منظور ج ٢٦ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

وعن قدرته، على استظهار الدليل من القرآن الكريم في رده على الحرورية من الخوارج، أورد في نصيحته من الابتعاد عنهم، ودحض حججهم أكثر من عشر آيات، مما يبرهن على فهمه العميق، للقرآن الكريم، وتدبره لمعانيه، علاوة على إدراكه للسنة المطهرة^(١).

ويجد المتابع لأحاديث ومواعظ وهب بن منبه، أنها مستمدة، من فهمه لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، دقة في التوضيح، وتجلية للسامع، حتى يدرك المراد من حكمة الله، في توزيع الأرزاق، وتهيتها لعباده ويبلو عباده جلّ وعلا، بالرضا والصبر وحسن التوكل، يقول سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾^(٣).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يُرزق الطير، تغدو خماساً، وتروح بطاناً»^(٤).

(١) يراجع في ذلك، وفي مجموعة من أقوال وهب: سير أعلام النبلاء للذهبي الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ج ٤ ص ٥٤٤ - ٥٥٦ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٢ .

(٣) سورة النحل، الآية ٧١ .

(٤) أخرجه الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه برقم ٢٣٤٥ في الزهد، وأخرجه أيضاً أحمد وابن ماجة والحاكم، ينظر جامع الأصول لابن الأثير . ١٤٠/١٠ .

ومن الآيات الكثيرة، والأحاديث العديدة، في تكفل الله سبحانه، بأرزاق عباده ومعاشهم، منذ خلقهم حتى يفارقوا الحياة الدنيا، ولا يطلب منهم سبحانه إلا: شكره وحسن عبادته، وأداء حق هذه النعم لله عملاً وتوكلًا .

من هذا المطلوب فهمه جيداً، نجد كثيراً من أحاديث ومواعظ وهب، يحرص فيها على تمكين هذا المعنى، في قلوب الناس، وقد أورد أبو نعيم [٣٣٦ - ٤٣٠هـ] في الحلية، خاصة، وغيرها عامة، ومن ذلك ما رواه أبو نعيم الأصبهاني [٣٣٦ - ٤٣٠هـ]، بالسند إلى عقيل ابن معقل، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لا يشكن ابن آدم، أن الله عز وجل يوقع الأرزاق، متفاضلة ومختلفة، فإن تقلل ابن آدم، شيئاً من رزقه، فليزده رغبة إلى الله عز وجل، ولا يقولنّ لو اطلع الله هذا، وشعر به غيره، فكيف لا يطلع الله الشيء الذي هو خلقه وقدره؟

أو لا يعتبر ابن آدم في غير ذلك، مما يتفاضل فيه الناس، فإن الله فضل بينهم في الأجسام، والألوان والعقول والأحلام، فلا يكبر على ابن آدم أن يفضل الله عليه في الرزق والمعيشة، ولا يكبر عليه أنه قد فضل عليه في علمه وعقله، أو لا يعلم ابن آدم أن الذي رزقه في ثلاثة أوانٍ من عمره، لم يكن له في واحد منهنّ كسب ولا حيلة، أنه سوف يرزقه في الزمن الرابع .

أول زمن من أزمائه، حين كان في رحم أمه، يُخلَقُ فيه ويُرزَق من غير كسبه، في قرار مكين، لا يؤذيه فيه حرّ ولا قرّ، ولا شيء يهمله، ثم أراد الله سبحانه أن يحوّله من تلك المنزلة، إلى غيرها، ويحدث له في الزمن الثاني: رزقاً من أمه، يكفيه ويغنيه من غير حول ولا قوة، ثم أراد الله أن يعصمه من ذلك اللّبن، ويحوّله في الزمن الثالث: في رزق يُحدّثه له، من كَسْبِ أبويه، يجعل له الرحمة في قلبيهما، حتى يؤثرهما على أنفسهما، بكسبهما ويستغنيا روحه، بما يعينهما، ولا يعينهما في شيء من ذلك، بكسب ولا حيلة يحتالها، حتى يعقل ويحدّث نفسه أن له حيلة وكسباً .

فإنه لن يغنيه في الزمن الرابع، إلّا من أغناه و رزقه في الأزمان الثلاثة التي قبلها، فلا مقال له ولا معذرة، إلّا برحمة الله هو الذي خلقه، فإنّ ابن آدم كثير الشكّ، يقصر به حلمه وعقله، عن علم الله، ولا يتفكّر في أمره، ولو تفكّر حتى يَفْهَم وَيُفْهَم، وحتى يعلم علم أنّ علامة الله، التي بها يعرف خالقه الذي خلقه، ورزقه لما خُلِقَ^(١)، كما أن له رأياً في الخوارج، يحذر منهم، ومن خفايا نواياهم^(٢).

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني نشر دار أم القرى بالقاهرة ج ٤ ص ٢٥ .

(٢) ينظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٥٣/٤ - ٥٥٥ .

٤ - وأما الجنّ المكلفون بشرع الله، وتوحيد العبادة له سبحانه: عقيدة وعملاً، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١)، فقد كان من سبب إسلامهم، وهدايتهم إلى دين الحق، سماعهم القرآن، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، قائم يصلي في الليل، بعدما صرفهم الله إليه عليه الصلاة والسلام كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٤).

ذكر ابن الجوزي [٥٠٨ - ٥٩٧هـ] في تفسيره في سبب صرفهم

إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقوال:

الأول: أنهم صرفوا إليه بسبب ما حدث من رجهم بالشَّهب، رواه البخاري ومسلم، من حديث ابن عباس قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين، وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأحقاف الآيات ٢٩ - ٣١ .

الشَّهْب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشَّهْب، قالوا: وما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها. فمرّ الذين توجَّهوا نحو تهامة، بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو بـ(نخلة) قائم يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن، قالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فرجعوا لقومهم، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(١).

والثاني: أنهم صُرفوا إليه، لئِنْذِرهم، وأمر أن يقرأ عليهم القرآن، هذا مذهب جماعة منهم قتادة. وفي رواية لمسلم من حديث علقمة، قال: قلت لعبدالله: من كان منكم مع النبي، ليلة الجن؟ فقال: ما كان معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة، فخفنا عليه فانطلقنا نطلبه في الشَّعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراء، فقلنا: يا رسول الله أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك. فقال: إنّه أتاني داعي الجنّ، فذهبت أقرئهم القرآن. وقال قتادة: ذكّر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إني أمرتُ أن أقرأ على الجنّ، فأياكم يتبعني؟».

والثالث: أنهم مروا به وهو يقرأ، فسمعوا القرآن.

(١) سورة الجن الآيتان ١، ٢ .

فذكر بعض المفسرين: أنه لما يئس من أهل مكة أن يجيبوه، خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، فلما كان ببطن نخلة، قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فمرّ به نفر من أشراف جنّ نصيين، فاستمعوا القرآن، فعلى هذا القول، والقول الأول لم يَعْلَم بحضورهم، حتى أخبره الله تعالى. وعلى القول الثاني علم بهم، حين جاؤوا، وفي المكان الذي سمعوا فيه تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم قولان: أحدهما الحجون و به قال ابن مسعود وقتادة، والثاني بطن نخلة عن ابن عباس، وبه قال قتادة. وأما التفرق فقد اختلف في عددهم، أما دينهم فاليهودية^(١).

وذكر هود بن محمّ الهواريّ [من علماء القرن الثالث الهجري] في تفسيره، على سورة الأحقاف قائلاً: ذكر بعضهم أن جنّ نصيين^(٢)، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم القرآن، فقالوا: يا رسول الله زودنا، فقال: كل روثة لكم خضرة، وكل عظم لكم عرق، فقالوا: يا رسول الله إن أمّتك ينجسونه، علينا، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يُسْتَنْجَى بعظم أو روثة .

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ج ٧ ص ٣٨٧-٣٩٠ باختصار .

(٢) قال ياقوت: نصيين مدينة عامرة من بلاد الجزيرة بين الموصل والشام، معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٥ ص ٢٨٨ دار صادر بيروت عام ١٣٩٧ هـ .

وقال: ذكروا عن عون بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود قال: خرجنا حاجين، ومعتمرين حتى إذا كنا بالطريق، هاجت ريح فارتفعت عجاجة من الأرض، حتى إذا كانت على رؤوسنا، انكشفت عن حية بيضاء، فنزلنا وتخلّف صفوان بن المعطل فأبصرها، فصبّ عليها من مطهرته، وأخرج خرقة من عيبته، فكفنها فيه، ثم دفنها، ثم اتبعنا .

فإذا بنسوة قد جئن عند العشاء، فسلمن ثم قلن: أيكم دفن عمرو ابن جابر؟ فقلنا: والله ما نعرف عمرو بن جابر .

فقال صفوان بن المعطل: أبصرت جانا أبيض، فدفتته. قلن: ذاك والله عمرو بن جابر، بقيّة من استمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قراءة القرآن من الجنّ، التقى زحفان من الجنّ: زحف من المسلمين، وزحف من فسقة الجنّ، فاستشهد رحمه الله^(١).

وعند ابن كثير في تفسيره رحمه الله [٧٠٠ - ٧٧٤هـ]، على أول سورة الجنّ قال: يقول تعالى، أمراً رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يخبر قومه: أن الجنّ استمعوا القرآن، فأمنوا به وصدّقوه، وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا

(١) تفسير كتاب الله العزيز للهوراري ج ٥ ص ١٥٢-١٥٤ الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي بيروت .

قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴿٢﴾ أَي إِلَى السَّادَاتِ وَالنَّجَاحِ، ﴿٣﴾ فَتَأْمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٤﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿٥﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ﴿٦﴾ (١)، وقد قدّمنا الحديث في ذلك، ثم قال على قوله تعالى: ﴿٧﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿٨﴾ (٢)، أي طرائق متعدّدة، مختلفة وآراء متفرقة .

قال ابن عباس ومجاهد، وغير واحد: ﴿٩﴾ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١٠﴾ أي: منا المؤمن ومنا الكافر .

وأورد عن أحمد بن سليمان النجاد، في أماليه بالسند إلى الأعمش يقول: تروّح إلينا جنيّ، فقلت له: ما أحبّ الطعام إليكم؟ قال: الأرز. قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللّقم ترفع، ولا أرى أحداً، فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. فقلت: فما الرفضة فيكم؟ قال: شرّنا .

وأورد عن الدمشقي، أنه سمع بعض الجنّ، وهو في منزل بالليل ينشد:

قلوب براها الحبّ حتى تعلّقت

مذاهبها في كل غرب وشارق

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٩ .

(٢) سورة الجن الآية ١١ .

تهيم بحبّ الله، والله ربّها

معلقة بالله دون الخلائق^(١)

وجاء عند السيوطي في تفسيره: رواية عن سهل بن عبد الله، قال: كنت في ناحية عاد، إذ رأيت مدينة من حجر، منقورة في وسطها، قصر من حجارة تأوي إليه الجنّ، فدخلت فإذا شيخ عظيم الخلق، يصلي نحو الكعبة، وعليه جبة صوف، فيها طراوة، فلم أتعجب من عظم خلقته، كتعجبي من طراوة جبته فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، وقال: يا سهل إن الأبدان لا تخلق الثياب، وإنما يخلقها روائح الذنوب، ومطاعم السّحت، وإن هذه الجبة، عليّ منذ ستمائة سنة، لقيت بها عيسى، ومحمداً عليهما السلام فأمنت بهما، فقلت له: ومن أنت؟ قال: أنا من الذين نزلت فيهم: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾^(٢).

قال: كان من جنّ نصيين^(٣).

وابن كثير رحمه الله ذكر في تفسيره لسورة الجنّ، أن عبدالعزيز بن

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، كتاب الشعب بالقاهرة ج ٨ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ وقد أورد أشياء كثيرة عنهم .

(٢) سورة الجن آية ١.

(٣) تفسير الدرّ المشور في التفسير بالمأثور للسيوطي ج ٨ ص ٢٩٧ دار الفكر في بيروت ١٤١٤ هـ .

عمر قال: أمّا الجنّ الذين لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة فجنّ نينوى، وأمّا الجنّ الذين لقوه بمكة فجنّ نصيبين، وجنّ حرّان، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل سبعة من أهل نصيبين، رسلاً إلى قومهم^(١). فدلّ هذا على أن وافدهم جاؤا أكثر من مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد ما سمعوا القرآن، ليتعلّموا أمور دينهم .

وفيما ذكرناه دليل واضح، على أن هذا القرآن، هو نور الله الساطع، يهدي به سبحانه من يشاء، ويفتح الله بما فيه من آيات ومعجزات، آذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، فتبهرهم ما أودع الله فيه، من معجزات وآيات، يدركها من أنار الله بصيرته، في مشارق الأرض ومغاربها، ليدخلوا الإسلام، كل حسب اختصاصه .

٥- فقد دخل الإسلام عالم جيولوجيا في جامعة أكسفورد ببريطانيا، عندما احتار في الصّخور وألوانها، وسبب ذلك، وطال بحثه ولم يجد نتيجة، فقرأ عليه مساعده في العمل وهو مسلم من الهند، هاتين الآيتين، من سورة فاطر، وبعد ما أفهمه دلالتهما وشرح له معنهما، شرح الله صدره للإسلام، وأسلم، والآيتان هما: ﴿ أَلَمْ تَر

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المطابع عيسى البابي الحلبي وشركاهم ج٤

لمعالي الدكتور / محمد بن سعد الشويعر

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ (١).

٦- ودخل في دين الله الحق، ربّان سفينة أسباني، عاش حياته كلها في البحار، وفي يوم من الأيام، تلاطمت المياه، وارتفع الموج، وترادفت السحب، فازداد الظلام، وأيقن بالهلاك، فصار من رجال بحارته، رجل مسلم، لاحظ عليه الهدوء، والهمهمة بكلمات باللغة العربية لم يفهمها (الربّان)، فتعجب منه وهدوئه، وكل من في السفينة، قد أصابهم الهلع لما يرون من بوارد الهلاك، فاستدعاه (الربّان)، ليسأله عما يقول، وما رأيته في الوضع... فقال: كنت أدعو ربي، وأقرأ آيات من كتاب الله.... قال: ما هي؟ فقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمْتُمْ فِي تَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ (٣).

(١) سورة فاطر الآيتان ٢٧، ٢٨ .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾

فلما كرر عليه معنى هاتين الآيتين الكريميتين، وجّه الربّان، لهذا الرجل المسلم القول: هل كان محمد ممن يركبون البحر؟ فأجابه بلا وأنه لم يعرف عنه حتى السفر بالبحر .

قال: أنا لي أربعون سنة أعمل في البحر، وأوّل مرّة يمرّ بي مثل هذا الاضطراب في البحر، وهذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض، وهذا - ما دام محمد لم يكن ممن يسافر في البحر - يدلنا على أن ما قلّته: عن كتابكم القرآن، أنه ليس من كلام محمد - كما يُصوّر لنا - غير صحيح.... والآن نؤمن بأنه جاء من قوّة أعلا.... بمثل هذا الوصف الدقيق .

وبعد ما نصل لليابسة، وينقذنا الله من هذا الهلاك والأعاصير، سأتعلم الإسلام وأتفهّم القرآن.. وقد حصل هذا بعد ذلك وأسلم .

٧- ومن يقرأ حكايات من أسلموا في كل مكان، يجد آثار القرآن، منطبعة في قلوبهم، بعدما جذبتهم عظمة القرآن، ودلالاته العميقة، التي سبقت العلوم الجديدة في حياة البشر، ذلك أنه شرع الله إلى الثقلين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد أحاط من أنزله سبحانه بكل شيء علماً .

(١) سورة النور الآيتان ٤٠، ٤١ .

وما أشرنا إليه فما هو إلا شواهد فقط، تدلّ على بعض أدوار القرآن الكريم، والسنة المطهرة، في جذب من أراد الله له الخير، إلى نور الإيمان، الذي به الإرشاد وحسن التوجيه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

٨- وفي الآيات الكريمات، في السور الكبار الأربع: الأولى من كتاب الله: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة خاصة وفي غيرها عامة، ما يوضح دور أهل الكتاب، في أمرين: الاستجابة لمن أراد الله بهم الخير، عندما عرفوا الحق، الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، من عند ربه، مصدّقاً لما معهم كما حصل مع وفد نجران النصارى، الذين عاندوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفضوا الإسلام في البداية، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم، عندما جاء مع أهل بيته، فقال زعيمهم يا قوم نطلب التأجيل، لأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا. وفي رواية ما لاعن قوم نبياً إلا أبادهم الله فطلبوا المهلة وأن يرسل معهم أميناً فأرسل معهم أبا عبيدة^(٢).

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٢) يراجع في قصتهم تفسير ابن كثير عند تفسير الآية ٥٩، وما بعدها، من سورة آل عمران .

أو العناد والجحود، لمن حَقَّتْ عليه الشقاوة، ولم ينفعه علمه الذي أخبرتهم به كتبهم، وجاء على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، وفق ما بعث الله به الرسل من قبله، والله الحكمة البالغة في الهداية، ولذلك خلق الثقلين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١).

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .